الأسلوب الحجاجي في القرآن الكريم، وسبيل استثماره لدى المؤسّسة التربوية

وقفة تأمّلية مع آية من القرآن الكريم (البقرة 258)

الأستاذ: مغربي محمد رضا

جامعة سيدي بلعباس ـ الجزائر

تحاول هذه الدراسة المقتضبة تقديم منهجية تعليمية تستند إلى أبجدية الحجاج القرآني، وكيف أننا من خلال مجريات حواريّته الحجاجية نهتدي إلى منهج (علمي، أخلاقي) نُعلّق عليه آفاق الدرس التعليمي لدى مؤسّساتنا التربوية. سواء من حيث المادة المقدمة، أو من حيث تكوين المُلقي لهذه المادة، وعليه قمت بعرض قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع النمرود التي حكاها الباري في صورة البقرة، فاقتربت مما جاد به علماء التفسير في خصوص هذه القصة الحجاجية المبهرة، (الرازي، الماوردي، القرطبي...) لأستل فوائد علمية وأخرى منهجية، أضعها في يد القارئ لعلنا ننهل من الحجاج القرآني قبسا ينير مسيرة التعليمية في مؤسّساتنا التربوية.

Résumé Cette brève étude vise à fournir une méthode d'enseignement basée sur les notions de base de l'argumentation coranique, et montre en quelques sortes comment arriver à travers un dialogue argumentatif à une approche (scientifique, morale) dans nos établissements scolaires. Tant en termes de matière présentée, ou en termes de l'enseignement de cette matière.

إن من أشرف المهام وأنبلها تبوّء المرء منزلة التّعليم، فشرفت المنزلة بشرف المعمول فيها؛ فالعلم بشقّيه الدّيني والدّنيوي ينير العقول ويهدي الحيارى إلى مصالح دينهم ودنياهم. وما هذا الوصف إلا تصديقا لقول الشاعر:

العلم يبني بيوتا لاعماد لها والجهل يهدم بيت العزّ والشرف

وخير علم يبتغى، وتعليم يبذل ما كان سبيله الهداية – هداية الدلالة، والتوفيق- هداية تأخذ بيدك إلى بارئ الخلق أجمعين. رب السموات والأرضين. فاحتيج لهذه الرسالة التعليمية رسلا وأنبياء اصطفاهم الله من خلقه. وأيّدهم بمعجزات حسيّة ومعنوية، حسيّة للمعاندين المكابرين، ومعنوية لأولي النهى الضالّين. فكان القرآن الكريم خير ممثّل لهذه المعجزة لما احتواه من أسلوب

حجاجي معجز يقرع الآذان الصمّاء، ويفتّق القلوب القاسية. ويتمظهر هذا الخطاب الحجاجي، أيّما تمظهر في الآيات التي حكاها الباري جلّ في علاه على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام مع قومه، وفي حال تعليمه ودعوته إلى ربه.

وبما أنّ القرآن رسالة خالدة وخزانة متجددة العطاء، آثرنا في سطور هذا المقال. الوقوف على آليات الخطاب الحجاجي العقدي، لأبي الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبيّنا أزكى الصلاة وأتمّ التسليم. لعلّها تكون لنا مكسبا إجرائيا نستثمره في العملية التعليمية بشتّى أطوارها في بلدنا. وكما لا يخفى على الجميع أنّ الوحي الإلهيّ (قرآن وسنة) قد نهل منه المستشرقون فوائد جمّة عادت بخيرٍ وفيرٍ لحضارتهم المعاصرة، فكيف ننأى نحن المسلمين عن هذا الخير وهو بين ظهرانينا؟

وأملا لبلوغ هذه الغاية، وقع بصري على تفسير "فخر الدين الرازي" المسمّى "بمفاتيح الغيب"[1] لاحتوائه على فوائد قيّمة يحاول صاحبها الغوص والتحليق بعيدا في رحاب التدبّر القرآني، فجعلت من هذا التفسير المقيد بالآية 258 متنا لعملي. حتى أحافظ على معنى الآية المراد الإشتغال عليها. فكأنّي أقوم بحاشية _إن جاز هذا الوصف _ لتفسير الرازي لهذه الآية. وقد أوردت كذلك تفاسير اقتضت المناسبة إيرادها لما تضمّنته من نكت وفوائد جليلة، مثل (النكت والعيون للماوردي، جامع البيان للطبري، وكذلك تفسير ابن كثير، والقرطبي ...) إلا أن تفسير الرّازي نال الحظّ الأوفر من الدّراسة.

وإنّ التفسير المباشر لآيات القرآن الكريم له ضوابطه وشروطه، وما يتصدّر له إلا الرّاسخون في العلم، وأظنّني بعيدا كل البعد عن هذه المنزلة. إنما حسبي من هذا الجهد استنباط قواعد تؤصّل لمفهوم الحجاج، ودوره البنّاء في العملية التّعليمية. فهي فوائد تمدّ الأستاذ أوّلا بإجراءات حجاجية وتعليمية تيسّر عمله التّعليمي. وتكون مساهمة مبدئية (متواضعة) لإعداد البرامج التعليمية لدى المؤسّسات التربوية في الجزائر.

وتخريج هذا البحث جاء وفق العناصر التالية:

1-وضع النص المراد الإشتغال عليه، وهو تفسير الآية 258 من سورة البقرة" أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ...الآية " في صدر الورقة، بكتابة قاتمة.

2-متن الدراسة في مجمله تفسير الرازي المسمى بمفاتيح الغيب، يتخلله تفاسير أخرى اقتضت المناسبة إيرادها، لما تضمنته من فوائد جليلة ونكت نفيسة، (النكت والعيون للماوردي، جامع البيان للطبري، وكذللك تفسير ابن كثير، والقرطبي، والبغوي...)

3-الفوائد المستقاة من المتن، جاءت في الهامش. وهي فوائد تمس بدرجة أولى موضوع الدراسة، أي كيف يمكننا استثمار هذه الواقعة الحجاجية التي حكاها القرآن في العملية التعليمية، فضمّنتها فوائد تمسّ المعلّم، والمتعلم، والجو التعليمي. بما فُتح عليّ من تخمين.

4-لم يراع في سرد الفوائد المذكورة ترتيبا، بل جاءت متماشية مع المتن، تحل وترتحل، بحله وارتحاله.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ *البقرة258*[2]

اعلم رحمك الله، أنه تعالى ذكر في هذه الآية قصة مناظرة إبراهيم عليه السلام مع ملك زمانه.

وَتَدُلُّ هذه الآية عَلَى إِثْبَاتِ الْمُنَاظَرَةِ وَالْمُجَادَلَةِ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ. وَفِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ مِنْ هَذَا كَثِيرٌ لِمَنْ تَأَمَّلَهُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى:" قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ" "إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ."(تفسير القرطبي ج3 ص286)[3]

أما قوله تعالى أَلَمْ تَرَ فهي كلمة يوقف بها المخاطب على تعجب منها ولفظها لفظ الاستفهام، وهي كما يقال ألم تر إلى فلان كيف يصنع. معناه هل رأيت كفلان في صنعه كذا. [4]

أما قوله إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْراهِيمَ فِى رِبِّهِ فقال مجاهد هو نمروذ بن كنعان وهو أوّل من تجبّر وادّعى الربوبية، واختلفوا في وقت هذه المحاجّة قيل إنه عند كسر الأصنام قبل الإلقاء في النار _عن مقاتل _ وقيل بعد إلقائه في النار. والمحاجّة المغالبة يقال حاججته فحججتُه أي غالبته فغلبته والضمير في قوله فِى رِبِّهِ يحتمل أن يعود إلى إبراهيم ويحتمل أن يرجع إلى الطاعن؛ والأول أظهر. كما قال: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللهِّ﴾ (الأنعام 80) والمعنى وحاجه قومه في ربه.

أما قوله: ﴿أَنْ آتَاهُ اللهُّ الْمُلْكَ﴾ فاعلم أن في الآية قولين. الأول أن الهاء في آتاه عائد إلى إبراهيم، يعني أن الله تعالى آتى إبراهيم (صلى الله عليه وسلم) الملك.

إلا أن الروايات الكثيرة واردة بأن الذي حاج إبراهيم كان هو الملك، فعود الضمير إليه أولى من هذه الجهة، وهو قول جمهور المفسرين.

ثم احتجّ القائلون بهذا القول على مذهبهم من وجوه: الأول أن قوله تعالى أَنْ آتَاهُ اللهُّ الْمُلْكَ يحتمل تأويلات ثلاثة، وكل واحد منها إنما يصح إذا قلنا الضمير عائد إلى الملك لا إلى إبراهيم وأحد تلك التأويلات أن يكون المعنى 1- حاج إبراهيم في ربه لأجل أن آتاه الله الملك على معنى أن إيتاء الملك أبطره وأورثه الكبر والعتو فحاجّ لذلك. ومعلوم أن هذا إنما يليق بالملك العاتي.[5] والتأويل الثاني أن يكون المعنى أنه جعل محاجّته في ربه شكراً على أن آتاه ربه الملك، كما يقال عاداني فلان لأني أحسنت إليه يريد أنه عكس ما يجب عليه من الموالاة لأجل الإحسان. ونظيره قوله تعالى ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (الواقعة 82) وفي المحاجّة وجهان محتملان :

أحدهما : أنه معارضة الحجة بمثلها. والثاني: أنه الاعتراض على الحجة بما يبطلها. (تفسير الماوردي. ج1 ص329.) [6]

أما قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْراهِيمَ فِى ربه﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: الظاهر أن هذا جواب سؤال سابق غير مذكور، وذلك لأن من المعلوم أن الأنبياء عليهم السلام بعثوا للدعوة والظاهر أنه متى ادعى الرسالة فإن المنكر يطالبه بإثبات أن للعالم إلاهاً. ألا ترى أن موسى عليه السلام لما قال إِنِّى رَسُولُ رَبّ الْعَالَمِينَ (الزخرف 46) قَالَ فِرْعَوْنُ

وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (الشعراء 23) فاحتجّ موسى عليه السلام على إثبات الألوهية بقوله رَبّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ.

فكذا هاهنا الظاهر أن إبراهيم ادّعى الرسالة فقال نمروذ من ربك فقال إبراهيم ربّي الذي يحيي ويميت[7]. إلا أن تلك المقدمة حذفت لأن الواقعة تدل عليها.[8]

المسألة الثانية: دليل إبراهيم عليه السلام كان في غاية الصحة، وذلك لا سبيل إلى معرفة الله تعالى إلا بواسطة أفعاله التي لا يشاركه فيها أحد من القادرين.

المسألة الثالثة: لقائل أن يقول إنه تعالى قدّم الموت على الحياة في آيات منها قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ (البقرة 28) وقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ (الملك 2) وحكي عن إبراهيم أنه قال في ثنائه على الله تعالى: ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ (الشعراء 81) فلأي سبب قدم في هذه الآية ذكر الحياة على الموت حيث قال ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾. والجواب لأن المقصود من ذكر الدليل إذا كان هو الدعوة إلى الله تعالى وجب أن يكون الدليل في غاية الوضوح ولا شك أن عجائب الخلقة حال الحياة أكثر، واطّلاع الإنسان عليها أتمّ، فلا جرم وجب تقديم الحياة هاهنا في الذكر.[9]

أما قوله تعالى ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى يروى أن إبراهيم عليه السلام لما احتج بتلك الحجة دعا ذلك الملك الكافر شخصين وقتل أحدهما واستبقى الآخر وقال أنا أيضاً أحيي وأميت هذا هو المنقول في التفسير وعندي_ فخر الدين الرازي_ أنه بعيد. وذلك لأن الظاهر من حال إبراهيم أنه شرح حقيقة الإحياء وحقيقة الإماتة على الوجه الذي لخصناه في الاستدلال. ومتى شرحه على ذلك الوجه، امتنع أن يشتبه على العاقل الإماتة والإحياء على ذلك الوجه؛ بالإماتة والإحياء بمعنى القتل وتركه، ويبعد في الجمع العظيم أن يكونوا في الحماقة بحيث لا يعرفون هذا القدر من الفرق. والمراد من الآية والله أعلم شيء آخر، وهو أن إبراهيم عليه السلام لما احتجّ بالإحياء والإماتة من الله. قال المنكر تدّعى

الإحياء والإماتة من الله ابتداءا؛ من غير واسطة الأسباب الأرضية والأسباب السماوية، أو تدّعى صدور الإحياء والاماتة من الله تعالى بواسطة الأسباب الأرضية والأسباب السماوية؟ أما الأول فلا سبيل إليه، وأما الثاني فلا يدل على المقصود، لأن الواحد منا يقدر على الاحياء والاماتة بواسطة سائر الأسباب. فإن الجماع قد يفضي إلى الولد الحي بواسطة الأسباب الأرضية والسماوية وتناول السمّ قد يفضي إلى الموت، فلمّا ذكر نمروذ هذا السؤال على هذا الوجه أجاب إبراهيم عليه السلام بأن قال هب أن الإحياء والإماتة حصلا من الله تعالى بواسطة الاتصالات الفلكية؛ إلا أنه لا بد لتلك الاتصالات والحركات الفلكية من فاعل مدبر. فإذا كان المدبر لتلك الحركات الفلكية هو الله تعالى؛ كان الإحياء والإماتة الحاصلان بواسطة تلك الحركات الفلكية أيضاً من الله تعالى. وأما الإحياء والإماتة الصادران عن البشر بواسطة الأسباب الفلكية والعنصرية فليست كذلك. لأنه لا قدرة للبشر على الاتصالات الفلكية فظهر الفرق.

وإذا عرفت هذا فقوله إِنَّ اللهَّ يَأْتِ بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ ليس دليلاً آخر بل تمام الدليل الأول. ومعناه أنه وإن كان الإحياء والإماتة من الله بواسطة حركات الأفلاك إلا أن حركات الأفلاك من الله، فكان الإحياء والإماتة أيضاً من الله تعالى. وأما البشر فإنه وإن صدر منه الإحياء والإماتة بواسطة الاستعانة بالأسباب السماوية والأرضية، إلا أن الأسباب ليست واقعة بقدرته، فثبت أن الإحياء والإماتة الصادرين عن البشر ليست على ذلك الوجه، وأنه لا يصلح نقضاً عليه. فهذا هو الذي أعتقده في كيفية جريان هذه المناظرة لا ما هو المشهور عند الكل والله أعلم بحقيقة الحال.

أما قوله تعالى ﴿قَالَ إِبْراهِيمُ فَإِنَّ اللهَّ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ فاعلم أن للناس في هذا المقام طريقين الأول وهو طريقة أكثر المفسرين أن إبراهيم عليه السلام لما رأى من نمروذ أنه ألقى تلك الشبهة عدل عن ذلك إلى دليل آخر أوضح منه فقال ﴿إِنَّ اللهَّ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ فزعم أن الانتقال من دليل إلى دليل آخر أوضح منه جائز للمستدل.

فإن قيل هلا قال نمروذ فليأت ربك بها من المغرب.

قلنا الجواب من وجهين أحدهما أن هذه المحاجة كانت مع إبراهيم بعد إلقائه في النار وخروجه منها سالماً. فعلم أن من قدر على حفظ إبراهيم في تلك النار العظيمة من الاحتراق، يقدر على أن يأتي بالشمس من المغرب، والثاني أن الله خذله وأنساه إيراد هذه الشبهة نصرة لنبيه عليه السلام، "وهناك قول آخر ذهب إليه أبي حيان الأندلسي في امتناع نمروذ الرد على إبراهيم، فلم يدع أنه هو الذي يأتي بها من المشرق، لظهور كذبه لأهل مملكته ، إذ يعلمون أنه محدث ، والشمس كانت تطلع من المشرق قبل حدوثه ، ولم يقل : أنا آتي بها من المغرب لعلمه بعجزه ، فلما رأى أنه لا مخلص له سكت وانقطع"[10] (تفسير البحر المحيط ج2 ص301.)

والطريق الثاني وهو الذي قال به المحققون. إنّ هذا ما كان انتقالاً من دليل إلى دليل آخر، بل الدليل واحد في الموضعين وهو أنا نرى حدوث أشياء لا يقدر الخلق على إحداثها، فلا بد من قادر آخر يتولى إحداثها وهو الله سبحانه وتعالى. ثم إن قولنا نرى حدوث أشياء لا يقدر الخلق على إحداثها له أمثلة، منها الإحياء والإماتة، ومنها السحاب والرعد والبرق، ومنها حركات الأفلاك والكواكب "والمستدل لا يجوز له أن ينتقل من دليل إلى دليل آخر، لكن إذا ذكر لإيضاح كلام مثالاً فله أن ينتقل من ذلك المثال إلى مثال آخر، فكان ما فعله إبراهيم من باب ما يكون الدليل واحد إلا أنه يقع الانتقال عند إيضاحه من مثال إلى مثال آخر، وليس من باب ما يقع الانتقال من دليل إلى دليل آخر، وهذا الوجه أحسن من الأول وأليق بكلام أهل التحقيق منه."[11]

والإشكال عليهما من وجوه:

الإشكال الأول أن صاحب الشبهة إذا ذكر الشبهة ووقعت تلك الشبهة في الأسماع وجب على المحق القادر على الجواب. أن يذكر الجواب في الحال؛ إزالةً لذلك التلبيس والجهل عن العقول، فلما طعن الملك الكافر في الدليل الأول أو في المثال الأول بتلك الشبهة، كان الاشتغال بإزالة تلك الشبهة واجباً مضيقاً. فكيف يليق بالمعصوم أن يترك ذلك الواجب.

والإشكال الثاني أنه لما أورد المبطل ذلك السؤال، فإذا ترك المحق الكلام الأول وانتقل إلى كلام آخر أوهم أن كلامه الأول كان ضعيفاً ساقطاً، وأنه ما كان عالماً بضعفه، وأن ذلك المبطل علم وجه ضعفه وكونه ساقطاً، وأنه كأنه عالماً بضعفه فنبه عليه وهذا ربما يوجب سقوط وقع الرسول وحقارة شأنه. وأنه غير جائز.

والإشكال الثالث وهو أنه وإن كان يحسن الانتقال من دليل إلى دليل، أو من مثال إلى مثال، لكنه يجب أن يكون المنتقل إليه أوضح وأقرب، وهاهنا ليس الأمر كذلك لأن جنس الإحياء لا قدرة للخلق عليه، وأما جنس تحريك الأجسام فللخلق قدرة عليه، ولا يبعد في العقل وجود ملك عظيم في الجثة أعظم من السماوات وأنه هو الذي يكون محركاً للسماوات.

وعلى هذا التقدير؛ الاستدلال بالإحياء والإماتة على وجود الصانع أظهر وأقوى من الاستدلال بطلوع الشمس على وجود الصانع فكيف يليق بالنبي المعصوم أن ينتقل من الدليل الأوضح الأظهر إلى الدليل الخفي الذي لا يكون في نفس الأمر قوياً.

والإشكال الرابع أن دلالة الإحياء والإماتة على وجود الصانع أقوى من دلالة طلوع الشمس عليه، وذلك لأنا نرى في ذات الإنسان وصفاته تبديلات واختلافات، والتبدّل قوى الدلالة على الحاجة إلى المؤثر القادر، أما الشمس فلا نرى في ذاتها تبدلاً، ولا في صفاتها تبدلاً، ولا في منهج حركاتها تبدلاً ألبتة. فكانت دلالة الإحياء والإماتة على الصانع أقوى، فكان العدول منه إلى طلوع الشمس انتقالاً من الأقوى الأجلى إلى الأخفى الأضعف. وأنه لا يجوز.

الإشكال الخامس أن نمروذ لما لم يستح من معارضة الإحياء والإماتة الصادرين عن الله تعالى بالقتل والتخلية، فكيف يؤمن منه عند استدلال إبراهيم بطلوع الشمس؛ أن يقول طلوع الشمس من المشرق مني فإن كان لك إله فقل له حتى يطلعها من المغرب، وعند ذلك التزم المحققون من المفسرين ذلك، فقالوا إنه لو أورد هذا السؤال لكان من الواجب أن تطلع الشمس من المغرب، ومن المعلوم أن الاشتغال بإظهار فساد سؤاله في الإحياء والإماتة أسهل بكثير من التزام إطلاع الشمس من المغرب. فبتقدير أن يحصل طلوع الشمس من المغرب؛ إلا أنه يكون الدليل على وجود الصانع

هو طلوع الشمس من المغرب، ولا يكون طلوع الشمس من المشرق دليلاً على وجود الصانع وحينئذ يصير دليله الثاني ضائعاً كما صار دليله الأول ضائعاً، وأيضاً فما الدليل الذي حمل إبراهيم عليه السلام على أن ترك الجواب عن ذلك السؤال الركيك، والتزم الانقطاع واعترف بالحاجة إلى الانتقال إلى تمسك بدليل لا يمكنه تمشيته إلا بالتزام طلوع الشمس من المغرب، وبتقدير أن يأتي باطلاع الشمس من المغرب فإنه يضيع دليله الثاني كما ضاع الأول، ومن المعلوم أن التزام هذه المحذورات لا يليق بأقل الناس علماً، فضلاً عن أفضل العقلاء وأعلم العلماء. فظهر بهذا أن هذا التفسير الذي أجمع المفسرون عليه ضعيف. وأما الوجه الذي ذكرناه فلا يتوجه عليه شيء من هذه الإشكالات.[12]

لأنا نقول لما احتج إبراهيم عليه السلام بالإحياء والإماتة أورد الخصم عليه سؤالاً لا يليق بالعقلاء وهو أنك إذا ادعيت الإحياء والإماتة لا بواسطة فذلك لا تجد إلى إثباته سبيلاً، وإن ادعيت حصولها بواسطة حركات الأفلاك فنظيره أو ما يقرب منه حاصل للبشر فأجاب إبراهيم عليه السلام بأن الإحياء والإماتة وإن حصلا بواسطة حركات الأفلاك لكن تلك الحركات حصلت من الله تعالى، وذلك لا يقدح في كون الإحياء والإماتة من الله تعالى، بخلاف الخلق فإنه لا قدرة لهم على تحريكات الأفلاك فلا جرم، لا يكون الإحياء والإماتة صادرين منهم، ومتى حملنا الكلام على هذا الوجه لم يكن شيء من المحذورات المذكورة لازماً، عليه والله أعلم بحقيقة كلامه[13]

أما قوله تعالى ﴿فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ﴾ فالمعنى، فبقي مغلوباً لا يجد مقالاً ولا للمسألة جوابه وهو كقوله ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ (الأنبياء 40) قال الواحدي وفيه ثلاث لغات بِهت الرجل فهو مبهوت وبهَت وبهُت قال عروة العذري

فما هو إلا أن أراها فجاءة فأبهُت حتى ما أكاد أجيب

أي أتحير وأسكت، ثم قال ﴿وَاللهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وتأويله على قولنا ظاهر.

أما المعتزلة فقال القاضي يحتمل وجوهاً؛ منها أنه لا يهديهم لظلمهم وكفرهم للحجاج وللحق. كما يهدي المؤمن فإنه لا بد في الكافر من أن يعجز وينقطع.

وأقول هذا ضعيف لأن قوله لا يهديهم للحجاج إنما يصح حيث يكون الحجاج موجوداً ولا حجاج على الكفر، فكيف يصح أن يقال إن الله تعالى لا يهديه إليه. قال القاضي ومنها أن يريد أنه لا يهديهم لزيادات الألطاف من حيث أنهم بالكفر والظلم سدّوا على أنفسهم طريق الانتفاع به.

وأقول هذا أيضاً ضعيف لأن تلك الزيادات إذا كانت في حقهم ممتنعة عقلاً، لم يصح أن يقال إنه تعالى لا يهديهم، كما لا يقال إنه تعالى يجمع بين الضدين، فلا يجمع بين الوجود والعدم قال القاضي ومنها أنه تعالى لا يهديهم إلى الثواب في الآخرة ولا يهديهم إلى الجنة.

وأقول هذا أيضاً ضعيف؛ لأن المذكور هاهنا أمر الاستدلال وتحصيل المعرفة، ولم يجر للجنة ذكر فيبعد صرف اللفظ إلى الجنة، بل أقول اللائق بسياق الآية أن يقال إنه تعالى لما بيّن أن الدليل كان قد بلغ في الظهور والحجة إلى حيث صار المبطل كالمبهوت عند سماعه. إلا أن الله تعالى لما لم يقدّر له الاهتداء لم ينفعه ذلك الدليل الظاهر. ونظير هذا التفسير قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاء اللهُ﴾ (الأنعام 111)[14]

(ويروى أن إبراهيم لما أبهت نمروذ بسؤاله ذاك، وهو أن يأتي بالشمس من المغرب. واعجزه بالإتيان بهذا الأمر، الذي هو من خصوصيات الملك الجبار المدبر، أمر نمروذ بإبراهيم فألقي في النار- وَهَكَذَا عَادَةُ الْجَبَابِرَةِ فَإِنَّهُمْ إِذَا عُورِضُوا بِشَيْءٍ وَعَجَزُوا عَنِ الْحُجَّةِ اشْتَغَلُوا بِالْعُقُوبَةِ، فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ،- (تفسير القرطبي ج3/ ص285.)[15] انتهى تفسير الآية.

ومجملا في البناء الشكلي للسورة، نرى تكرار الفعل قال، حكاية من الله عز وجل عن هذه الواقعة. وفي هذا نبراس يسترشد به كل من ينقل حقيقة معرفية اختلف فيها جدلا، أو محاجة، إذ يتوجب على الناقل سرد الأقوال كلها بأمانة علمية، فلا يجرمنا شنآن قوم على أن لا نعدل. وهذا دليل على وجوب الأمانة العلمية للمعلم. ثم إن ترتيب حجج كلا الفريقين مطلب علمي كذلك، لما فيه من سمة وثوقية للمتعلم إزاء فكرة معلمه. فيأخذ الفكرة عن قناعة معرفية وعلمية، لا عن تلقين

ديداكتيكي. فنبدأ بحجج المعارضين للحقيقة التي نتبناها، ثم نختم بالحجة الدامغة التي تزيل الشبهة، ولا تبقي للشك أثرا. فالباري سبحانه، ابتدأ هذه الآية بجواب لسيدنا إبراهيم، عن شبهة أوردها نمروذ –كما تقدم معنا– وختمها بحجة أبطلت دعاوى نمرود الزائفة.

إذا تمّ بحمد الله ومنّه الانتهاء من عرض تفسير الرازي لهذه الآية، تفسيرا هو من بين التفاسير التي تفرّد بها عن غيره، برأيه المتميّز؛ الذي ينفذ إلى أغوار المعاني فيسبرها، وإلى أسيقة الظروف فيفقهها. وذلك كما شاهدنا منه التفسير الذي خالف به جمهور المفسرين لمجرى أحداث المناظرة. أما مرادنا نحن من هذا التفسير فقد بان واتضح من خلال الفوائد التي آثرنا أن تكون هامشا أو حاشية على الأصل. – حتى نحفظ للتفسير مكانته، ونعلم لأنفسنا قدرا– فكانت تصب نحو المعلم وتقنيات أداء مهامه تارة، وإلى المتعلم والجو التعليمي تارة أخرى. فنرجوا أن تلقى هذه التوصيات آذانا صاغية وأفئدة للنصيحة راغبة، من ذوي القرار في المنظومة التربوية عندنا.

كما أتوجه بنداء إلى كل الباحثين –على الأقل طلبة الماجستير والدكتوراه– الذين تصدّروا للبحث في ميدان التعليمية ومناهجها. أن يلفتوا أنظارهم إلى القرآن الكريم والسنة المطهّرة، فينهلوا منهما مقاصدهم، فيستفيدوا ويفيدوا، ويبثّوا في أبحاثهم هذه دفئ الإيمان، وروح التجديد والنهضة في آن واحد. هذا أحسن بكثير من أن نولّي وجهونا إلى مناهج ونظريات لا ندري أهي لنا أو ضدّنا، فنكون حينئذ أخطأنا من حيث أردنا الصواب.

مراجع البحث وإحالاته:

1 فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، دار الكتب العلمية، ط1– بيروت – 1421هـ – 2000 م عدد الأجزاء / 32

2ينظر تفسير هذه الآية فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، دار الكتب العلمية، ط1– بيروت – 1421هـ – 2000 م ج7/ ص19–25.

3 تبرز من خلال هذه الآية قيمة المحاجة العلمية ودورها التعليمي، فالأستاذ مطالب بافتعال هكذا جو حجاجي يبني من خلاله دروسه، حتى يقوم بإشراك المتعلم في صنع الدرس، وتتربى لديه قناعة اتجاه المفاهيم التي يستقبلها، لأنه ساهم ولو بحضوره الذهني في تشكّلها.

4 بدأت هذه الآية بلفظ الرؤيا وهو أسلوب مناسب لإيصال الفكرة إلى التلميذ؛ حتى وإن كانت الرؤية هاهنا معنوية، فإنك تنقل التلميذ من العيني إلى المعنوي، وهذا أسلوب جيد للإنتقال من الملموس المشاهد إلى الفكر المجرد.

كما ذكر في الآية أن الملك نمروذ هو الذي حاج إبراهيم عليه السلام، فلولا أن إبراهيم قد فسح له المجال ومنحه الفرصة لذلك، لما أقدم هذا الأخير على محاجته، وهنا فائدة أخرى ينبغي للمعلم الأخذ بها، كأن يترك المجال أولا للتلميذ بإبداء رأيه في الموضوع المقرر للدرس، فهذا أدعى لاستدراج عقله لصلب الموضوع. بخلاف أن يتصدر المعلم تلقينه الدرس طول الوقت، ولا يضمن بذلك حضور عقل التلميذ.

5 وهذه فائدة عظيمة تأخذ بيدنا إلى كيفية تهيئة الجو المناسب للتعليم، فكل ما من شأنه إدخال الكبر والعجب للنفس والتمايز بين التلاميذ، هو صادّ عن قبول العلم والحق. وما العلم إلا حقيقة معرفية يبثّها الأستاذ لتلامذته.

وعملا بالقاعدة الأصولية "النهي عن الشيء أمر لضدّه"؛ وجب على المؤسّسة التربوية مساواة التلاميذ من حيث أزيائهم _فرض هندام موحّد_ والقيام بإشراكم في كل الأشياء التي يتداولونها في المؤسّسة التربوية_الكتب، الوجبة الغذائية..._ ونداء آخر للأولياء بالإبتعاد قدر المستطاع عن تمليك الأطفال أشياء معتبرة، كالهواتف النقالة وغيرها من الوسائل التي تُظهر التمايز وتورث حب التملّك. فإن مثل هذه الأشياء مدعاة للعزوف عن العلم والمعرفة.

6 والمعلم في دروسه يستعين بهذه القاعدة، خصوصا في الشق الثاني من مفهوم الحجاج، فيسعى جاهدا إلى إبطال الإحتمالات الخاطئة حول الفكرة التي يدور حولها الدرس، ليتدرج بعقل الطالب إلى الحقيقة المرجوة، وهذا الأسلوب يفتح للتلميذ أفق البحث المتواصل وعدم الإقتصار على مستوى فكري محدود، فتتكون لديه شراهة –إن جاز هذا التعبير– في البحث عن المعرفة واكتسابها، مع روح النقد البنّاء.

7 وفي دليل إبراهيم عليه السلام على ربوبية الله، وتمثيلها من الواقع المشاهد فائدة جليلة. فالمعلم إذا قدّم حقائق معرفية لا بد له من الإتيان بالدليل عليها لإقناع التلميذ، ولتكن أمثلته في تدليله ذاك أقرب إلى واقع التلميذ وأنسب لمعقوليته.

8 وهذا أسلوب بياني يرينا كيف أن الأستاذ بإمكانه تجاوز مقدمات في إلقائه لدروسه، خصوصا إذا اتّسمت بالطول وأخذت بذهن التلميذ بعيدا عن الموضوع، ومن ثمّ وجب الإقتصار في هذه الحالة على صلب الدّرس لما فيه من استثمارِ القوى الذهنية للمتعلم، ومباشرة الهدف المنشود.

9 وفي تقديم الحياة على الموت، سرّ ينبغي التنبه له فإبراهيم عليه السلام في حالة حجاج تعليمي، فمثاله هذا كأنه يتقصّد منه تنشيط وإعادة إحياء عقل النمروذ، وذلك لكشف عتمة الجهل والغفلة عنه، ثم تهيئته لإدراك معنى هذه الآية الإلهية. وسبيلنا في استثمار هذه الفائدة أولا أن نهيّئ وجبة فطور الصباح للتلاميذ داخل المؤسّسات التربوية. لأنّ الكثير من التلاميذ يقدمون إلى المدارس دون تناولها _سواء لظروف اجتماعية، أو تقاعس الأمّهات عن هذا الدور_ فتوفيرنا لهذه الوجبة نضمن به نشاط وحيوية التلميذ، وبالتالي انفتاح عقله على تقبل المعارف والعلوم.

10 وهنا كذلك نؤكد على الفائدة التي كنا أوردناها سابقا، وهي تخيّر المعلم الأمثلة من الواقع المشاهد والأقرب للتلميذ، ففي ذلك تمام الحجة وكمالها.

11 وههنا فائدة للمعلّم في طريقة عرضه للحجج التي يبرهن بها على صدق معلومته للتلاميذ، فلابد على المعلم الإستمرار في الحجة الواحدة مع تنويع الأمثلة على صحتها، لا أن ينتقل من حجة إلى أخرى فهذا يوهم التلميذ بأن معلّمه ضعيف الحجة غير واثق بما يقول. خصوصا إذا أشكلت الحجة على التلاميذ المتميّزين، وكانت محلّ شبهة وطعن لديهم. فالانتقال إلى حجة أخرى يترك فراغات مسكوت عنها، تزعزع الثقة العلمية لدى التلميذ اتجاه معلّمه. وتسدّ الباب لتلقي الحقائق العلمية منه بعد ذلك.

12 أورد الشيخ الرازي عدة احتمالات تقلّل من قوّة التفسير الذي أجمع عليه كثير من المفسرين -كما قال-، ليصل في الأخير إلى تفسير أنسب لمقام الحال، وأليق بفطنة أبي الأنبياء، وهذه آلية وإجراء يناسب المعلم في عرضه لحقيقة ما. – فـ"نفي النفي إثبات" كما يقول المناطقة- وعليه يقوم المعلم بإخلاء ذهن التلميذ أولا من كل الشبه التي قد تتبادر لذهنه، ثم تأتي مرحلة سد الفراغ بالمعلومة الصائبة. التي لا يلحقها في هذه الحالة أدنى شيئ من الريبة أو الشك.

13 فإذا سايرنا الرازي في تفسيره لهذه المناظرة فإنه يضع أصابعنا على قضية في غاية الأهمية. إنها الفلسفة الفيضيّة الحرّانية التي كان يعتقدها أهل بابل، وهي اعتقادهم أن الأجرام السماوية هي التي تخلق وتنظّم الموت والحياة تفويضا من واجب الوجود، فواجب الوجود في نظرهم منزّه عن مثل هذه الأعمال/ (للإضطلاع أكثر على هذه المسألة.

ينظر: محمد عابد الجابري، نحن والتراث، قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي. ط5 المركز الثقافي العربي، المغرب 1986ص130-31)

وهذا هو الشّرك الذي جاء إبراهيم ليدكّ حصونه ويأتي عليه من الأساس بالحجّة العقلية والمناظرة التي هي بين أيدينا الآن، لذلك استحق خلّة الرحمان ونال درجة الأبوة للأنبياء، فمناظرة قوم ملكوا الحجاج في أمور مشتبهة لهو من

الشيئ العسير، فاحتيج لهذه المنزلة يقين عيني أولا كما في قوله {وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض...} (الأنعام 75) وثانيا كما في قوله {وإذ قال إراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى...} (البقرة 260).

14 وسواء أخذنا بتفسير المعتزلة أو الرازي يمكن الجمع بينهما في ما ترمي إليه هذه الآية من دعوة إلى الإبتعاد عن الظلم بشتى أنواعه، لأنه صادّ عن طلب الحق والعلم، ولفظة الظلم كما هو معروف تتغير دلالتها حسب السياق التي توضع فيه، فتارة نجدها تدل على الشرك كما في قوله تعالى على لسان لقمان ناصحا لابنه: {يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} (لقمان 13) كما نجد لفظة الظلم تدل أيضا على المعاصي التي هي دون الشرك، كما في قوله تعالى {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا} (النساء 110) وَقِيلَ: وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَيْ: شِرْكًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ: يَعْنِي إِثْمًا دُونَ الشِّرْكِ، (تفسير البغوي/ ج1، ص700.)

فندعوا بهذه المناسبة المعلم إلى تعهّد التلاميذ بنصائح دينية تحذر من الشرك والمعاصي، لأنهما عائقان من تمكن المعرفة من عقولهم، فضلا من استثمارها في حياتهم، كما نتوجه في هذا المقام إلى وزارة التربية والتعليم، وننبّهها من مغبة الإختلاط في المؤسّسات التربوية، خصوصا في صفوف المراهقين، وهذا هو مكمن الداء في المؤسّسة التربوية اليوم عندنا. فأصبح الإنحراف السلوكي والأخلاقي الناتج عن الإختلاط يهدّد جل أبنائنا، ويقف بالتالي أمامهم حجرا عائقا نحو تكوينهم المعرفي وتحسين مستواهم. حتى إن الغرب اليوم تفطن لهذه الظاهرة، وأصبح يفكر جديا بفصل الأولاد عن البنات في المدارس والمعاهد. فحريّ بنا نحن أهل الفضيلة والدين العظيم، أن نجنّب أجيالنا الصاعدة سرطان الرذيلة والمهدّد الأكبر لمستقبلهم العلمي والمعرفي.

15ولنا في هذا الرأي من التفسير وقفة نرتشف منها خلقا نبيلا، وحكمة مميزة يجب على كل من أقدم على التعليم أو المحاجة الإتصاف بها، وهي سعة الصدر على من نعلم، خصوصا إذا صدرت منه أسئلة محرجة، ما لنا في الرد عنها من سبيل. فنحّذر هاهنا كل الحذر من ردة الفعل السلبية التي تخرجنا من سياق العلم والتعلم إلى الإنتصار لحظ النفس، كأن نحرم مثلا ذلك التلميذ من السؤال مرة أخرى، أو غلق باب المحاورة مع التلاميذ... تحت قاعدة ما أريكم إلا ما أرى. فهذا عمل مشين يجب على الأستاذ التفطن من الوقوع فيه، لأنه مقبرة للعلم، وصرح للجهل المركب.